

## فضاء الشعير عند جودت حيدر

كلمة العميد أنيس مسلم في الحفلة التي أقامتها جامعة الروح القدس  
\_ فروع البقاع بتاريخ 8 أيار 2015.

حاول جودت حيدر، من خلال الشعير، على غرار  
غستونباشلار، إدراك المغنناالسليم لمروره على الأرض. وهو،  
شأن كبار الشعراء، أتقن الغوص في جوانية الأمور، انطلاقاً  
من كينونته الشعريّة الرهيفة الحسّ، البالغة الإدراك.  
تمتّعنا عرنا بمخيّلة مينا فيزيقيّة ساعدته على العيش كإنسان حرّ،  
حرّيته جزء لا يتجزأ من الحالة الشعريّة التي تحدّث عنها  
هولدرن. أيا بلوغ بالرومنسيّة مرتبة الصوفيّة<sup>1</sup>.

رسالته ترجّحت بين الداخليّ والخارجيّ؛ بين البيت، بغرفة النوم  
وخزانة الملابس وجواريرها، والحديقة بأشجارها وطيورها،  
والعالم الواسع: العراق، فرنسا الولايات المتحدة، مروراً  
بجبل لبنان، غابة الأرز والقمم العالية.

أتقن الوصل بين العالمين المختلفين: البيت (عالمنا الحميم)  
والفضاء الواسع، فضاء الذات وفضاء الكون (الكوسموس)،  
(الأرض والسما).

فكره الحرّ كان أجمل فضاء حقّقه، إذ وحد ذاتهم مع الكون، جاعلاً  
من القصيدة بساط ریح يمتطيه ليوسّع مدى الصّفحة البيضاء  
التي بين يديه، علّها تسع الفضاءين معاً: فضاء القصيدة وفضاء  
الطبيعة، وتسهّل عليه تحقيق حلمه بالتنقل في أرجاء الكون  
وآفاقه الشاسعة.

أدرك جودت حيدر أنّ علاقة الشعير بالفضاء، علاقة دقيقة، تمتدّ  
من السكّن هنا، في بعلبك، وفي هذا البيت، وهذه الغرفة؛ أي

من العلاقة بالتاريخ والجغرافية ومُلامسة التراب، إلى الهناك حيث تَبْلُغُ الرُّوحُ أَبْعَدَ الآفاقِ وأقصاها.

قد يتساءلُ بَعْضُهُمْ: كيف يَسْعُ الفضاءُ الشاعريُّ المَحْدُودُ، الكَامِنُ في داخلِ الشاعرِ، الفضاءَ الخارِجِيَّ اللامحدودَ، ذاك الذي ترتأدهُ المُخَيَّلَةُ، وَكَأَنَّهُ مَلْعَبُهَا أو واحةٌ وارِفةٌ في صحراءِ الأَيَّامِ الرَّديئةِ؟ بَعْضُ النُّقَّادِ الفرنسيين، يَظُنُّ أن تَمَّةَ قرابةً، في عالمِ الأدبِ، بين الصَّفْحَةِ المُعدَّةِ للكتابةِ والمَشْهَدِ الطَّبِيعِيِّ، La page et le paysage. وفي هذا الظَّنِّ وافرٌ من الصوابِ.

وفي الغربِ، من استخلصَ وَجُودَ نوعين من العلاقةِ بينَ الشِّعْرِ والفضاءِ، انطلقاً من كونِ الشِّعْرِ سَيِّدَ السَّكَنِ البشريِّ. النَّوعُ الأوَّلُ، يُحْتَصِرُ بأنَّ الشِّعْرَ يجمعُ أشياءَ القلبِ البشريِّ إلى وسائلِ المُخَيَّلَةِ الجَماعِيَّةِ: الخُرَافاتِ والأساطيرِ وأسرارِ الأرضِ.

صحيح أن الإنسانَ هوَ مَنْ ابتدَعَ هذه الأشياءَ؛ ولكنَّ الصحيحَ أيضاً، أنَّ هذه الأشياءَ، نَفْسَها، تَوَثِّرُ، بدورها، في مَنْ بَدَعَهَا في علاقتهِ بالناسِ والطبيعةِ وما فيها وما عليها. أمَّا النوعُ الثاني، فيقومُ على اعتبارِ الشِّعْرِ نتيجةً لتجربةِ السَّكَنِ، وما يَنْقُلُهُ إلينا الشَّاعِرُ، هوَ ما آلتِ إليه خِبْرَتُهُ. وهوَ في وَصْفِهِ واقعَ البيئَةِ، البشريِّ والطَّبِيعِيِّ، يُحوِّلُهُ إلى واقعِ شَخْصِيٍّ، فَنَدخُلُ معه في الدَّائِيَّةِ، ونُذْرِكُ أنَّ الشَّاعِرَ لا يُولِّفُ العالَمَ على الورقِ، بل يُنشِئُ عالَمَهُ الخَاصَّ.

هكذا نجدُ أنفُسنا أمامَ بُعْدَيْنِ لشاعريَّةِ السَّكَنِ: الأوَّلُ بَعْدُ يُبدِعُ فيه الشاعرُ فضاءً جديداً. والثاني: بَعْدُ يَصِفُ فيه الشاعرُ هذا الفضاءَ.

يُخْبِرُنَا غاستون نيشلار أَنَّ الشَّعْرَ، وبخاصَّةِ المُعاصرِ، أدخلَ الحُرِّيَّةَ في جَسَدِ الكَلامِ نَفْسِهِ، فبدلَ الكَلامِ كَظَاهِرَةً من ظَاهِرَاتِ الحُرِّيَّةِ. الأمرُ الَّذِي ضاعَفَ ديناميَّةَ القصيدةِ ومَكَّنَها من أنْ تَذْهَبَ، أحيانًا، أبعدَ من الحَيَاةِ، وقد تجتازُ عَتَبَةَ الموتِ وتُحَوِّمَ المعروفِ والمجهولِ لتوصِلَ إلينا رسالتَها، وهذه قد تكونُ مُشابهةً أو مناقضةً لتجربتنا الخاصَّة؛ ألا يَنسِجُ الشَّعْرُ، في آنٍ مَعًا، الواقعَ والوَهْمِيَّ الخياليَّ؟

" يَفْقِدُ الشَّعْرُ ماهيَّتَهُ إنْ لم يُجسِّدْ فِكرَةَ الخَلْقِ الكَامِلِ " يقول بيار-جان جوف Pierre-Jouve، والخَلْقُ الكَامِلُ، لا يُشْبِهُ سِوَاهُ البَتَّةِ، فهوَ فَرِيدٌ يَنْبَثِقُ من لا شيءٍ. ودواوينُ جَوَدَتِ حَيَدَرَ، وبخاصَّةِ قِصائدِ "أصداء"، ليست بعيدةً عَن هذه الأَجواءِ، وهي تَنطَلِقُ من تجارِبِهِ الخاصَّةِ، وتَنجُو نَحْوَ مَكانٍ ما هُناكَ، ثُمَّ تَعوُدُ غَنِيَّةً، مُثْقَلَةً بِسَنابِلِ اكتشافاتها وتجارِبِها.

بعد أن فقدتُ ربيعَ العُمُرِ  
ولم يبقِ سوى ورقة خضراء على شجرتي  
ولكن مع همّةٍ لا تُفارقني  
استرجعتُ فتراتِ المجدِ وأنا أتسلِّقُ بُرْجَ العُمُرِ<sup>2</sup>.

لقد اكتسبت حياةً شاعرينا، بهذه الدَّورَةِ، أينعَ ثمارَ الخِبرَةِ والمُعاناةِ؛ فأَمسى، كسواه من كبارِ الشُّعراءِ، يعودُ، من وقتٍ إلى آخرَ، نَحْوَ طفولتِهِ حَيْثُ يَجِدُ ذِكرياتٍ جَميلةً، خبيئةً ظَنَّها امَّحت ولن تعود.

لنَسْمَعَهُ يَتَذَكَّرُ أَمَارَةَ شَبَابِهِ، فخورًا بشيخوخته، غيرَ ناكِرٍ  
جبروتَ الزمنِ، مُتَحَدِّيًا طُغْيَانَهُ بِشُمُوحِ كِبَارٍ، يَكْبُرُونَ عَلَى  
الدَّهْرِ كَمَا عَلَى ذَوَاتِهِمْ<sup>3</sup>.

بِالْأَمْسِ كُنْتُ أَمِيرَ شَبَابِي  
وَالْيَوْمَ أَنَا إِمْبْرَاطُورِ سِنِّي  
وإِمْبْرَاطُورِيَّتِي مَا هِيَ إِلَّا مِيدَانُ الْحَقِيقَةِ  
بِسْمَةِ فِي الرَّبِيعِ، وَفِي الشِّتَاءِ دَمُوعٍ<sup>4</sup>.

فِي ضَوْءِ مَا تَقَدَّمَ، يَبْدُو لِي أَنَّ جُودَتَ حَيَدَرِ الشَّاعِرِ، حَقَّقَ فِي  
حَيَاتِهِ، الرَّحْلَةَ الرَّائِعَةَ، مِنَ الرَّحْبِ الدَّاخِلِيِّ الْحَمِيمِ، إِلَى رَحَابِ  
الْأَفَاقِ الْوَسَاعِ، فَحَوَّلَ الْمَدَى الشَّاسِعَ، إِلَى حَرَكَةٍ ذَاتِيَّةٍ هَادِيَةٍ،  
حَمَلَتْ إِلَيْهِ الْإِطْمِنَانَ وَالسَّلَامَ؛ فَاسْتَمَرَ، حَتَّى أَيَّامِهِ الْأَخِيرَةِ،  
يَذْهَبُ، بَعِيدًا، كِي يَجِدَ الْكَنْزَ الْفَرِيدَ، وَلَعَلَّ هَذَا الْكَنْزَ ظَلَّ كَامِنًا،  
فِي دَاخِلِهِ، كِي لَا يُفْسِدَ عَلَيْهِ مُتَعَةَ الْبَحْثِ وَالِاسْتِقْصَاءِ!  
وَبَعْدَ أَنْ الشُّعْرَاءُ يَرُدُّونَ، مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ، دَائِرَةَ الْحَيَاةِ، عَلَى  
ذَاتِهَا، دُونَ أَنْ يُوصِدُوهَا، لِيَبْقَى حِسُّهُمْ مُشَرَّرًا عَلَى الدُّنْيَا.  
فَالشَّاعِرُ، إِذْ يَسْكُنُ أَدْغَالَ ذَاتِهِ، يُنْصِتُ، أَبَدًا، إِلَى غَيْرِ صَدَى  
يَدْعُوهُ إِلَى الرَّحْبِ الْبَعِيدِ الْهِنَاكَ.  
تُرَى أَتُغْرِينَا الْأَصْوَاتُ الْآتِيَّةُ مِنْ هُنَاكَ بِالْمُضِيِّ إِلَى الْهِنَاكَ  
وَحَسْبُ؟ أَمْ تُؤَهِّلُنَا وَتَشُدُّ رِحَالَنَا إِلَى الْمُطْلَقِ؟!

1 - الشعْرُ فِي نَظَرِ هُولْدِرْلِنِ هُوَ التَّأَلُّفُ بَيْنَ مُخْتَلِفِ الْإِمْكَانِيَّاتِ. lapoésieestl'harmonie entre les

، elleestcalcul de l'incalculable. différentesfacultés، ما لَا يُحْسَبُ.

2-جودت حيدر، أصداء Echoes صفحة 33.

3 -جودت حيدر، أصداء، Echoes، صفحة 22.

4-جودت حيدر، أطياف Shadows صفحة 14.